أضواء على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة

الدكتور صالح بن محمد آل أبو بكر الزهراني

أضواء على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة

د. صالح بن محمد آل أبو بكر الزهراني (*)

ملخص البحث

يرصد البحث دلائل إعجاز سورة الفاتحة ويكشف عن الأسرار البلاغية لمفرداتها وتراكيبها. وقد جاء في مدخل البحث أسماء السورة وفضلها وفضل البسملة ومعناها العام، ثم تناول الباحث في المبحث الأول دلائل إعجازها وسماتها البلاغية، وتضمن المبحث الثاني أسرار نظم الآيات ووجوه بلاغتها، وبيّن الباحث تضمُّن السورة أصولَ معاني القرآن فأضحت جديرة بأن تسمى أمَّ القرآن.

ومن الفنون البلاغية التي عرض لها الباحث: حسن الافتتاح، والإيجاز، وأسلوب القَصْر، والتأكيد، والالتفات، والإطناب، والتجانس، والفواصل المؤثرة، والاستعارة، وأكد الباحث اشتمال السورة على لطائف متنوعة وأساليب فنية كان لها أثر في إيقاظ النفوس واستمالة القلوب.

وكان من نتائج البحث أن هذه السورة تتميز بسموٍّ بلاغتها التي تنبع من دقة كلماتها وغزارة معانيها، فقد تضمنت نوعي الدعاء، وهما دعاء الثناء ودعاء الطلب، وظهر من التحليل البلاغي أن آياتها كلها دعاء وثناء على الله بأعظم العبارات، وكل هذا بعض السر في البدء بها في تلاوة كتاب الله وفي وجوب قراءتها في الصلوات.

وأجاب الباحث في ثنايا البحث عن أسئلة كثيرة تَرِدُ في ذهن المتتبع لأسرارها البلاغية العامة، ثم تأتي خاتمة البحث وعرض لمصادره العلمية التي استقى منها.

(*) أستاذ مشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

مقدمة البحث

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا البحث جاء بعنوان: «**أضواء على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة**».

أما الهدف منه فهو إيضاح الدلائل الكبرى على إعجازها البلاغي، والكشف -قدر المستطاع- عن الأسرار البلاغية لمفرداتها وتراكيبها.

وكان من أسباب الكتابة فيه السَّعْيُ إلى تقديم صورة ميسرة في جانب مهم يتعلق بهذه السورة العظيمة، وهو إعجازها البلاغي، يضاف إلى هذا ما ورد من أحاديث تبين فضلها، وتدفع المسلم إلى تدبر معانيها والتأمل في أسرار نظمها، وروائع بلاغتها؛ فقد روى الإمام أحمد في المسند أن أبي بن كعب قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّ القرآن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[1]). وروى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي سعيد بن المعلى: (لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[2]).

أمَّا خطتي التي سِرْتُ عليها في كتابة هذا البحث فإنها تقوم على وضعه في مدخل

(١) انظر: مسند أحمد ٦/ ١٣٣، رقم الحديث ٢٠٥٩٢، وفتح القدير ١/ ١٥، وتفسير ابن كثير ١/ ٩-١١.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٦٢٣، رقم الحديث ٤٢٠٤، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب.

ومبحثين، وخاتمة :

المدخل ذكرت فيه أسماء السورة، وفضلها، وفضل البسملة، ومعناها العام.

والمبحث الأول جاء بعنوان: «من الدلائل البلاغية العامة لإعجاز السورة».

والمبحث الثاني جاء بعنوان: «من بلاغة الكلمات والتراكيب في السورة».

أما منهجي في دراسة الآيات فإنه يقوم على تحليل مفرداتها وتراكيبها شارحاً خصائصها البلاغية.

وقد اعتمدت في هذا البحث على مصادر متنوعة، أهمها كتب التفسير التي تهتم بالتحليل البلاغي، مثل الكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للرازي، وتفسير أبي السعود، والتفسير القيم، وبدائع التفسير، وبدائع الفوائد لابن القيم، وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

وكنت حريصاً وأنا أتصفح هذه المصادر وغيرها على أن أقدم خلاصتها في بيان دلالات السورة وبلاغتها بأسلوب سهل قريب إلى جميع القراء؛ حتى يحقق البحث ثمرته المرجوة منه، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى هذا، وحسبي أن كنت مجتهداً، وراغباً في أن يخرج هذا العمل على صورة طيبة. والله أسأل التوفيق والسداد في القول والعمل.

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

مدخل:

١-أسماؤها وصفاتها:

لهذه السورة الكريمة أسماء وصفات كثيرة تدل على عظيم شأنها، وسمو بلاغتها نذكر منها:

أ- الفاتحة أو فاتحة الكتاب؛ لأنه بها تستفتح القراءة في الصلوات، وبها افتتح الصحابة كتابة المصحف الإمام.

وقد وردت تسميتها بـ «فاتحة الكتاب» في الحديث الذي رواه مسلم وغيره في قول الملك عندما نزل من السماء وقال مخاطباً رسول الله ﷺ: (أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك **فاتحة الكتاب**، وخواتيم سورة البقرة...[١]). وسيأتي نص الحديث في الكلام على فضل السورة.

وكذلك وردت تسميتها بـ «فاتحة الكتاب» في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٢]).

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٣٣٢، رقم الحديث ١٨٧٤، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١/ ٢٦٣، رقم الحديث ٧٢٣، كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها..، وصحيح مسلم ٤/ ٣٢٢، رقم الحديث ٨٧٢، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة..

ب- **أمُّ الكتاب، وأمُّ القرآن، والسبع المثاني، والقرآن العظيم**، فقد ثبتت هذه الأسماء في طائفة من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ: فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمُّ القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم[(١)]). وسميت بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة.

وقال البخاري في أول كتاب التفسير: سُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة،[(٢)] وقيل: إنما سُمِّيت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته.

وسيأتي إيضاح ذلك عند الحديث عن بعض دلائل إعجازها ولطائفها البلاغية التي تستوحى من أسماء السورة وكلماتها..

ج- **وتُسَمَّى سورة الحمد**؛ لأنَّ أوَّلها لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ [الفاتحة: ٢][(٣)].

د- **وتسمى سورة الصلاة**؛ لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه: (قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال الله: حمدني عبدني...) إلى آخر الحديث[(٤)].

هـ- **الشفاء، والرُّقْية**؛ لما ورد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فاتحة الكتاب شفاء من السم[(٥)])، ولحديث أبي سعيد الخدري في الصحيح

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٨، رقم الحديث ٤٤٢٧، في كتاب التفسير، باب ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، وانظر سنن الترمذي ٥/ ١٤٣، رقم الحديث ٢٨٧٥، في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب.

(٢) انظر: صحيح البخاري كتاب التفسير ٤/ ١٦٢٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٩.

(٣) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٤٤.

(٤) انظر: صحيح مسلم ٤/ ٣٢٤، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.... رقم الحديث ٨٧٦.

(٥) شعب الإيمان ٢/ ٤٥٠، رقم الحديث ٢٣٦٨، باب ذكر فاتحة الكتاب، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٨.

حين رقى بها الرجل السليم[1]، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أنها رُقْية؟). وسيأتي سياق الحديث عند الكلام على فضل السورة.

و- **أساس القرآن، والواقية، والكافية، والكنز**؛ فعن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن، قال: وأساسها بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . وسماها سفيان بن عيينة بالواقية. وسماها يحيى بن كثير الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها.[2]

والفاتحة سورة مكية، وهي سبع آيات بالاتفاق[3]؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧] وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (فاتحة الكتاب هي السبع المثاني)؛ ولحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] سبع آيات، إحداهن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١] وهي السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهي أم القرآن وفاتحة الكتاب).[4]

٢- فضلها:

ورد في بيان فضل هذه السورة أحاديث كثيرة تدل على دقة معانيها، وسمو بلاغتها نذكر منها ما يأتي:

أ- ذكر الإمام أحمد بن محمد بن حنبل - رحمه الله تعالى- في مسنده عن أبي سعيد ابن المعلى رضي الله عنه قال: (كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قلت يارسول الله: إني كنت أصلي قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

(١) أي الملدوغ بعقرب ونحوه.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى أحمد بن تيمية ٢٢/ ٣٥١.

(٤) انظر: سنن البيهقي الكبرى ٢/ ٣٤١، رقم الحديث ٢٤٤٠، كتاب الصلاة، باب: الدليل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية تامة من الفاتحة،، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٨، ٩، وصفوة التفاسير ١/ ١٠.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يارسول الله: إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: نعم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)، وقد ورد الحديث بهذا اللفظ في صحيح البخاري(١).

ب- عن عبد الله بن جابر قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أهراق الماء فقلت: السلام عليك يارسول الله، فلم يرد عليَّ فقلت: السلام عليك يارسول الله، فلم يرد عليَّ قال: فقلت: السلام عليك يارسول الله، فلم يرد عليَّ، قال: فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وأنا خلفه، حتى دخل رَحْلَه، ودخلت أنا المسجد فجلست كئيباً حزيناً، فخرج عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر فقال: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليك السلام ورحمة الله، ثم قال: ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: (اقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى تختمها)(٢).

ج- قال البخاري في كتاب الطب، باب النفث في الرقية، عن أبي سعيد الخدري (أن رهطًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا في سفرة سافروها، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدَنا لُدِغَ، فسَعَيْنا له بكل شيء، لا ينفعه شيء،، فهل عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لراقٍ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٩١٣، رقم الحديث ٤٧٢٠، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، وانظر مسند أحمد ٥/ ٢٤٢، رقم الحديث ١٧٣٩٥.

(٢) مسند أحمد ٥/ ١٨٩، رقم الحديث ١٧١٤٤، حديث عبد الله بن جابر رضي الله تعالى عنه.

تجعلوا لنا جُعْلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق، فجعل يتفل ويقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى لكأنما نُشِط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَة[1]، قال: فأوفوهم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا له، فقال: (وما يدريك أنها رقية؟ أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم بسهم)[2].

د- وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك. فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك **فاتحة الكتاب**، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[3].

هـ- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى صلاةً، لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خِداجٌ[4]، خِداجٌ، خِداجٌ غيرُ تمامٍ)، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: (قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال الله: مجَّدني عبدي[5]، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ

---

(١) أي: ألم وعِلَّة، تقول العرب: ما بالبعير قلبة أي ليس به داء يُقلَبُ له، فينظر إليه، وقال الطائي: معناه ما به شيء يقلقه، فيتقلب من أجله على فراشه. (انظر لسان العرب: مادة قلب).

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢١٦٩، رقم الحديث ٥٤١٧، كتاب الطب، باب النفث في الرقية.

(٣) صحيح مسلم ٦/ ٣٣٢، رقم الحديث ١٨٧٤، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة.

(٤) خِداج: نقصان. انظر: مختار الصحاح مادة «خدج».

(٥) التمجيد: منزلة أعلى من الثناء.

﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل[1]).

٣- فضل البسملة:

قبل أن ندخل في بيان المعنى العام لآيات السورة يجدر بنا ذِكْرُ شيء من فضائل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التي تعد آية من سورة الفاتحة؛ إذ قد وردت آثار تدل على فضلها، وعظيم بلاغتها، منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي صلى الله عليه وسلم قال: عُثر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقلت: تَعِسَ الشيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب[2]).

فهذا من تأثير بركة بسم الله، ولذا تُسْتَحَبُّ في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة لما جاء: (كل أمر لا يبدأ فيه بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهو أجذم)[3]. وتستحب عند دخول الخلاء، وفي أول الوضوء، وعند الذبح، وعند الذكر؛ لِما ورد من الآثار في ذلك.

وتستحب عند الأكل؛ لما في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربيبه عمر بن أبي سلمة: (سَمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك[4]).

وتستحب عند الجماع؛ لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان،

(١) صحيح مسلم ٤/ ٣٢٤، رقم الحديث ٨٧٦، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.
(٢) مسند أحمد ٦/ ٤٩، رقم الحديث ٢٠٠٦٩، حديث رديف النبي صلى الله عليه وسلم.
(٣) سنن أبي داود ٢/ ٦٧٧، رقم الحديث ٤٨٤٠، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام.
(٤) صحيح مسلم ١٣/ ١٩٣، رقم الحديث ٥٢٣٧، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب.

وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبداً)[1].

٤- سياق الآيات ومعناها العام:

هذه السورة فاتحة الكتاب، تبدأ بالثناء، والتقديس، والشكر لله على نعمه الظاهرة والباطنة، فهو تعالى المختص بالحمد؛ لأنه ذو العظمة والمجد والسؤدد، وهو المتفرد بالخلق والإيجاد، رب أجناس العوالم كلها في السموات والأرض...

إن الحمد لله؛ لأنه الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وعَمَّ فضله جميع الخلق.

إن الحمد لله؛ لأنه مالك الأمور كلها في الدنيا والآخرة وهو-سبحانه-في الآخرة المالك للجزاء والحساب بين الخلق كلهم، في ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا والأمر لله وحده.

إنه المتفرد بصفات الكمال، فهو الذي يجب أن يخصَّه الخَلْقُ بالعبادة، وبطلب الإعانة، فلا يعبدون أحداً سواه، بل له يذلون ويخضعون، ويستكينون ويخشعون، وبه يستعينون على طاعته ومرضاته، فإنه المستحق لكل إجلال وتعظيم.

إنه سبحانه هو الذي يجب أن يتجه إليه العباد، داعين أن يرشدهم إلى طريق الحق والدين المستقيم، وأن يثبتهم على الإسلام الذي بعث به أنبياءه ورسله، وأرسل به خاتم المرسلين، وأن يجعلهم ممن سلك طريق المقربين الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق إلى كل خير، وألَّا يجعلهم من الحائدين عن الصراط المستقيم من اليهود والنصارى، وسائر الكفرة والمشركين[2].

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٤٧، رقم الحديث ٦٠٢٥، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أتى أهله، وانظر صحيح مسلم ١٠/ ٢٤٦، رقم الحديث ٣٥١٩، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ١٧، ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير١/ ٣٠، وانظر: الكشاف ١/ ١٨، ٢٧، وصفوة التفاسير ١/ ١١، ١٢.

المبحث الأول

من الدلائل البلاغية العامة لإعجاز السورة

أ - دلالة التسمية بأم القرآن:

أول مظهر من الدلائل البلاغية العامة لإعجاز سورة الفاتحة أنها تسمى أم القرآن؛ لأن كلماتها تشع بأصول المعاني التي يهدف القرآن إلى تقريرها في النفوس: وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله...

فـ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ يدل على وجود الصانع المختار؛ لأن الحمد بهذا الاختصاص لا يكون إلا للخالق.

و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يدل على وحدانيته، لأنه هو الذي يربي مخلوقاته بنعمه.

و﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يدل على رحمته بخلقه في الدنيا والآخرة.

و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على كمال حكمته ورحمته بسبب خلق الدار الآخرة للفصل بين العباد، ومجازاة كلٍّ بحسب عمله.

و﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يشير إلى الأمور التي لابد من معرفتها في تقرير العبادة على ما يرضي الله ورسوله، ويدلُّ على مصدر الإعانة على أدائها.

و﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يدل على الآثار المترتبة على العبادة والاستعانة، ومنها حصول الهداية إلى طرق الخير والرشاد في الدنيا والآخرة.

وهذه السورة تدل على أن العالَم ثلاث طوائف:

الأولى: الكاملون المحقون المخلصون، وهم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإليهم الإشارة بـ: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

الثانية: الذين أخلوا بالأعمال الصالحة وهم الفسقة، وإليهم الإشارة بـ: ﴿غَيۡرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الثالثة: الذين أخلوا بالاعتقادات الصحيحة، وهم أهل البدع والكفر وإليهم الإشارة بـ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

ومع ذلك كله فهذه السورة تشتمل على الثناء على الله تعالى بما هو أهله في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. وفي الوقت نفسه تشير إلى الوعد في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وتشير إلى الوعيد في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وتتضمن إعلان العبودية لله وحده في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... وتشير إلى التعبد بالأمر والنهي في ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ويمكن إيضاح هذا المظهر البلاغي من حيث إن هذه السورة تُسَمَّى أَمَّ القرآن بوجوه أخرى منها ما يلي:

الوجه الأول: أن أَمَّ الشيء أصله، والمقصود من القرآن الكريم أمور أربعة:

الأول: الإلهيات، وهي التي دل عليها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

والثاني: المعاد وهي التي دل عليها ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

والثالث: النبوات، وسيأتي إيضاح هذا الأمر في الصفحة الآتية.

والرابع: إثبات القضاء والقدر لله تعالى:

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دل على ضلال مذهب الجبرية والقدرية، الذين يعتقدون بأن الإنسان مجبور على ما يصدر عنه من الأفعال وأنها مقدرة عليه. ومن ناحية أخرى دل كذلك على إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره.

و ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دل

---

(١) انظر: التفسير الكبير ١/ ٢٢٨، ٢٢٩.

أيضاً على إثبات قضاء الله وقدره، وعلى النبوات[1].

ذلك أن أهل الضلال «هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقول ولا الـمُضلَّين بالبناء للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فُعِل فيهم، ولا حجة في هذا للقدرية فإنا نقول: إنهم هم الذين ضلوا، وإن كان الله أضلهم وفاق سنته، التي بان منها لخلقه أنَّ مَنْ لم يأخذ بأسباب الهدى يضل، بل فيه ردٌّ على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة، فتضمَّنَت الآية الرد عليهم.

كما تضمَّن قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الردَّ على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهادة لأهل الحق أنهم هم المصيبون، وهم المثبتون للقدر توحيداً وخلقاً، والمثبتون للقدرة؛ لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسباً، فاقتضت الآية إثبات الشرع، والقدر، والمعاد، والنبوة؛ فإن النعمة والغضب هما ثوابه وعقابه، فالـمُنعَم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا، وهديُ أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب طريق، وأبينها، وأدلها على عموم الحاجة، وشدة الضرورة إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهدايةَ لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة، في دار النعيم، ولخلافها ثمرة، وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي[2]».

الوجه الثاني: أن حاصل جميع الكتب الإلهية يرجع إلى أمور ثلاثة:

أ- الثناء على الله باللسان وهو في الفاتحة ماثل في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

ب- الاشتغال بالخدمة والطاعة وهو ماثل في ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

---

(١) انظر: السابق ١/ ١٥٦، ١٥٧.

(٢) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية تحقيق يسري السيد محمد ١/ ٢٤٩-٢٥٤.

ج- طَلَبُ أنواع الهدايات وهو في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1].

فالمتأمل في هذه السورة يجد أنها تشتمل على جملة معاني القرآن.

فـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى وفاق ما تدل عليه جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من اختصاص جنس الحمد به تعالى، واستحقاقه لذلك الاختصاص.

و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يشمل سائر صفات الأفعال والتكوين، و﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يشمل أصول التشريع الراجعة للرحمة بالمكلفين، و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يشمل أحوال القيامة.

و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يجمع معنى الديانة والشريعة، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يجمع معنى الإخلاص في الأعمال.

و﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يشمل الأحوال الإنسانية وأحكامها من عبادات ومعاملات وآداب، و﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يشير إلى أحوال الأمم والأفراد الماضية الفاضلة، و﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يشمل سائر قصص الأمم الضالة، ويشير إلى تفاصيل ضلالتهم المحكية عنهم في القرآن.

فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة -تصريحاً وتضمُّناً- علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض[2].

ب – دلالة التسمية بسورة الكنز:

وكذلك من مظاهر بلاغتها ودلائل إعجازها أنها تُسَمَّى سورةَ الكَنْز؛ لأنها السورة التي اشتملت على أمهات المطالب العالية، وهي:

(١) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٥٦، ١٥٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٥٦، ١٥٧، والتحرير والتنوير ١/ ١٣٣، ١٣٤.

التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء؛ إذ مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي الله، والرب والرحمن.

فالسورة مبنية على الإلهية النابعة من كلمة ﴿لِلَّهِ﴾، والربوبية النابعة من عبارة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والرحمة النابعة من عبارة ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، لأن الإله الذي يعبد بحق هو الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مبني على الربوبية؛ لأن الله هو الذي يمد الخلق بالنعم التي هي السبب في تربيتهم وإعانتهم.

وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم يكون بصفة الرحمة؛ لأن الله هو الرحمن الرحيم.

و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

و﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تضمن إثبات المعَاد، وجزاء العباد، بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق بالعدل التام.

ومن المعاني المكتنزة في كلماتها أنها تضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أولها: من جهة اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ إذ هو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

وثانيها: من جهة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إذ لا يليق به تعالى أن يترك عباده سدى هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرُّهم فيهما؛ لأنه ربهم.

وثالثها: من جهة اسمه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم.

ورابعها: من جهة ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذبَ أحداً

قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه....

وخامسها: من جهة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه الله ويرضاه.

وسادسها: من جهة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من قبل الرسل(١).

ج – دلالة التسمية بسورة الشفاء والشافية:

ومن دلائل إعجازها أنها تشتمل على الشفاءيْن: شفاءِ القلوب، وشفاءِ الأبدان، ولذا فإنها تُسَمَّى سورة الشفاء والشافية(٢).

يشرح ابن القيم كيف اشتملت سورة الفاتحة على شفاء القلوب، فيقول: إنها اشتملت عليه أتم اشتمال؛ لأن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين:

فساد العلم، وفساد القصد؛ إذ يترتب عليهما داءان قاتلان هما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها:

فـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة.

و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إذا حققها العبد علماً ومعرفة وعملاً وحالاً – فإنها تتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد؛ لأن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء:

١ – أن تكون العبودية لله وحده.

٢ – أن تكون بأمره وشرعه.

---

(١) انظر: التفسير القيم ٧–٩، للإمام ابن القيم، جمعه محمد الندوي، وحققه محمد حامد الفقي.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ١١، وتفسير أبي السعود ١/ ٩.

٣- ألَّا تكون بالهوى.
٤- ولا تكون بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم.
٥- أن تكون الاستعانة على عبوديته به سبحانه.
٦- ألَّا تكون الاستعانة بنفس العبد وقوته وحوله، وألا تكون بغيره من العبيد أمثاله.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميا به إلى التلف، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبر والعجب بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، وليس من المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق، وعدلوا عنه، وليس من الضالين، وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحَقٌّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءَيْن أن يُسْتشفى بها من كل مرض[1].

د: اشتمالها على نوعَي الدعاء:

ومن مظاهر إعجازها البلاغي أنها تضمنت نوعَي الدعاء، وهما: دعاء الثناء، ودعاء المسألة؛ لأن الدعاء ينحصر فيهما:

أما دعاء الثناء فهو الدالُّ على تمجيد الله وتقديسه والثناء عليه، بما أورده في كتابه،

(١) التفسير القيم ٤٦-٤٨.

أو جاء على لسان رسوله، وهنا في سورة الفاتحة ماثل في: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأما دعاء المسألة الدال على الطلب تلميحاً وتصريحاً فماثل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

هـ: اشتمالها على الرد على أهل الباطل:

ومن دلائل إعجازها أنها تشتمل على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يُعْلَمُ كما يقول ابن القيم بطريقين مجمل ومفصل:

«أما المجمل فهو أن الصراط المستقيم مُتضمِّن معرفة الحق، وإيثاره وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما جاء به علماً وعملًا في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى.

وأما المفصل فمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها. فنقول:

الناس قسمان: مُقِرٌّ بالحق تعالى، وجاحد له، فتضمنت الفاتحةُ إثباتَ الخالق تعالى، والردَّ على من جحده، وإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان، كلٌّ منهما حق، والقرآن مشتمل عليهما»[1].

---

(١) التفسير القيم ٤٩، ٥٠.

و: دلالة التسمية بسورة الصلاة:

ومن دلائل إعجازها أنها تُسَمَّى سورة الصلاة؛ لأنها تكفي عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها:

والدليل على ذلك أن الله تبارك وتعالى أشاد بها في الحديث القدسي الصحيح فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: «قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال: مجَّدني عبدي، -وقال مرة فوَّض إليَّ عبدي - فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل[١]».

ولهذا، فإن الصلاة لا تَصِحُّ بدونها لما ورد في الصحيحين عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من حديث عبادة بن الصامت: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٢]).

ز: الـحُسْنُ والبَراعة في افتتاح المناجاة:

ومن دلائل إعجازها البلاغي الحُسنُ والبراعة في افتتاح المناجاة بالحمد، فالله -سبحانه- أرشد عباده إلى التحلي بزينة الفضائل، وهي أن يقدروا النعمة حَقَّ قدرها بشكر المنعم بها، فأراهم كيف يستفتحون مناجاتهم بحمد واهب العقل، ومانح

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٣٢٤، رقم الحديث ٨٧٦، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وانظر الحديث مع تغيير يسير في تفسير ابن كثير ١/ ١١.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٦٣، رقم الحديث ٧٢٣، كتاب أبواب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، وصحيح مسلم ٤/ ٣٢٢، رقم الحديث ٨٧٢، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. وانظر تفسير ابن كثير ١/ ١٢، وفقه السنة ١/ ١٣٥.

التوفيق بـ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(1).

فقد ورد في تفسير الطبري أن ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أمر من الله عبده بقيل ذلك، فعن ابن عباس أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم عن الله: قل يـا محمـد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقل أيضا يا محمـد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ... ﴾(2).

وهو صلى الله عليه وسلم مكلَّفٌ بتبليغ أمته هذا القرآنَ كما أُنْزل عليه.

ح: التنبيه على أصول التزكية النفسية:

وكذا من دلائل إعجازها البلاغي، التنبيه على أصول التزكية النفسية.

ذلك أن الله تعالى أراد أن تكون هذه السورة أُولى سـور القـرآن الكـريم بتوقيـف النـبي صلى الله عليه وسلم.

ولهذا نبّه الله تعالى قُرَّاء كتابه، وفاتحي مصحفه لأصول هذه التزكيـة النفـسية بـما لقّنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة من قولـه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى آخـر السورة، فإنها تضمنت أصولاً عظيمة:

أولها: التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنته: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

وثانيها: التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبرؤ من الحول والقـوة تجاه عظمتـه بـما تضمنـته: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وثالثها: الرغبة في التحلِّي بالرشد والاهتداء بما تضمَّنـته: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

ورابعها: الرغبة في التحلي بالأسوة الحسنة بما تضمنـته: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

وخامسها: الرغبة في السلامة من الضلال الصريح بما تـضمنـته: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

---

(1) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٥٢.

(2) انظر: تفسير الطبري ١/ ٦٧.

عَلَيْهِمْ﴾.

وسادسها: الرغبة في سلامة التفكير من الاختلاط بشبهات الباطل المموّه بصورة الحق، وهو المسمى بالضلال بما تضمنته: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ط: تهيئة نفوس المخاطبين لما يسمعونه من القرآن:

وفي سورة الفاتحة سِمَةٌ بلاغية كبرى، يستطيع أن يقف عليها متأمِّلها هي: أن الفاتحة تهيئ نفوس المخاطبين لما يسمعونه من القرآن.

ذلك أن الكتاب المبارك أنزله الله هدى للناس، وتبياناً للأحكام التي بها صلاح الناس في عاجلهم، وآجلهم، ومعاشهم، ومعادهم.

ولما لم يكن لنفوس الأمة اعتياد بذلك لزم أن يُهيأ المخاطبون بها إلى تلقيها بإظهار استعدادهم النفسي، بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يعوق عن الانتفاع بتعاليم القرآن الراشدة.

فالفاتحة هَيَّأت النفوس بافتتاحها بتلك المناجاة للخالق، وهي المناجاة المتسمة بالتنزه عن التعطيل والإلحاد والدهرية بما تضمَّنه قَوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ والتنزه عن الإشراك بما تضمنه ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ والتنزه عن المكابرة والعناد بما تضمنه ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ...﴾.

والتنزُّه عن الضلالات التي تَعْتري العلوم الصحيحة والشرائع الحقة، فتذهب بفائدتها، وذلك بما تضمَّنه قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ولهذا وضعت في أول السور؛ لأنها تنزل منها منزلة ديباجة الخطبة أو الكتاب مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن.

ي: مقدمة السورة والإيجاز المعجز:

ومن الأدلة على الإعجاز البلاغي لسورة الفاتحة أن أسلوبها المعجز قد رسم

للمنشئين أربع قواعد للمقدمة:

القاعدة الأولى: أن تُفتتح بحمد الله.

القاعدة الثانية: أن تكون المقدمة من جوامع الكلم.

القاعدة الثالثة: أن تكون قصيرة؛ لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، وهو ظاهر في الفاتحة، ولتكون سنة للخطباء، فلا يطيلوا المقدمة، كي لا يُنْسبوا إلى العِيّ، فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة.

القاعدة الرابعة: أن تشيرَ المقدمةُ إلى الغرض المقصود، وهو ما يسمى في البلاغة براعة الاستهلال[1]؛ لأن ذلك يهيئ السامعين، لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه وسورة الفاتحة تضمنت -كما بينا- أصول مقاصد القرآن[2].

وهنا في سورة الفاتحة لما علَّم الله المؤمنين تلك المناجاة البديعة، التي لا يهتدي إلى الإحاطة بها في كلامه غيره-سبحانه- قدم الحمد عليها؛ ليضعَه المُناجون كذلك في مناجاتهم؛ جرياً على طريقة بُلَغاء العرب عند مخاطبة العظماء أن يفتتحوا خطابهم إياهم، وطلبتهم بالثناء والذكر الجميل.

فكان افتتاح الكلام بالتحميد سُنة الكتاب المَجِيد، وفيه القدوة الحسنة لكل بليغ مُجِيد.

ولذا لم يزل المسلمون- منذ أن علَّمهم الله ورسوله حُسن الافتتاح بالتحميد- يُلقِّبون كل كلام نفيس لم يشتمل في مطلعه على الحمد بالأبتر[3]، أخذاً من حديث أبي

---

(١) هو البدء بما يناسب المقصود (للوقوف على هذا الفن البلاغي انظر بغية الإيضاح ٤/ ١٣٠، وانظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، المنسوب إلى ابن قيم الجوزية ص ٢٠٦، وانظر: معجم البلاغة العربية ١/ ٨٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٥٢، ١٥٣.

(٣) السابق ١/ ١٥٤.

هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أو الحمد لله فهو أقطع[1]).

ك: إيجاز القِصَر في كلمات السورة:

والسورة من أولها إلى آخرها تتميز بسمة بلاغية كبرى تسمى في البلاغة العربية إيجاز القِصرَ[2]، من حيث إن كلماتِها تدلُّ على معانٍ كثيرة، لا يمكن الإحاطة بها، أشرنا فيما سبق إلى بعضها، و نشير هنا إلى بعضها الآخر:

فأولها: دلالتها على أن نعم الله تعالى لا تحصى وذلك في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن الحمد إنما يكون على النعمة، ونعم الله خارجة عن التحديد والإحصاء كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وثانيها: إشارتها إلى أنواع العوالم التي لا يعلمها إلا الله في ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن العالمين عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى.

وثالثها: دلالتها على أن رحمة الله بعباده لا تنحصر، وذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأن الرحمة عبارة عن التخلص من أنواع الآفات، وعن إيصال الخيرات إلى أصحاب الحاجات.. وهي كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ورابعها: إشارتها إلى أحوال الآخرة وذلك في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إذ مسائل الحشر والمعاد كثيرة، فهناك أحوال توجد عند قيام الساعة وبعدها، وهناك أحوال أهل الموقف، وأحوال الحساب، وأهل الجنة والنار.. أحوال كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى.

---

(١) انظر: سنن البيهقي الكبرى ٤/ ٤٥١باب ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة، رقم الحديث ٥٨٦٣، وشعب الإيمان ٤/ ٩٠، الباب الثالث والثلاثون في تعديد نعم الله، رقم الحديث ٤٣٧٢.

(٢) وهو عند البلاغيين تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني. للوقوف على هذا الفن. انظر: ثلاث رسائل في لإعجاز القرآن: رسالة الرماني، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٧٥.

وخامسها: إشارتها إلى التكاليف المأمور بها، وذلك في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به، والبعد عن المنهي عنه، على سبيل التعظيم والطاعة للآمر، وما أمر الله به، ونهى عنه أمور كثيرة.

وسادسها: إشارتها إلى طرق الاستدلال التي توصل الإنسان إلى الهداية؛ ليكون من الذين أنعم الله عليهم، وذلك في ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١).

ومن إيجازها المعجز اشتمالها على عشرة أشياء:

منها خمسة من صفات الربوبية، وهي: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك.

وخمسة أشياء من صفات العبد وهي: العبودية، والاستعانة، وطَلَب الهداية، وطلب الاستقامة، وطلب النعمة، فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوالِ الخمسة، فكأنه قيل: إياك نعبد؛ لأنك أنت الله، وإياك نستعين؛ لأنك أنت الربُّ، واهدنا الصراط المستقيم؛ لأنك أنت الرحمن، وارزقنا الاستقامة؛ لأنك أنت الرحيم، وأفض علينا سِجَال نعمك وكرمك؛ لأنك مالك يوم الدين(٢).

ومع كل ما سبق فإن سورة الفاتحة آية بينة على إعجاز القرآن؛ ذلك أن المسلم يردد هذه السورة مرات كثيرة في اليوم والليلة، دونما يعتريه ملل أو سأم، بل كلما تأمل في معانيها ازداد نشاطاً؛ لأن الله سبحانه قد ضمَّن هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجيهات ما يشير إلى عظيم بلاغتها، وإلى حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تُذْكر فيها(٣).

---

(١) انظر: التفسير الكبير ١/ ٢٣-٢٦.

(٢) السابق ١/ ٢٤١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢١.

المبحث الثاني

من بلاغة الكلمات والتراكيب في السورة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

هذه السورة تبدأ بـالبسملة تبركاً باسمه تعالى، وإشادةً به، وتنويهاً بذكره[(١)].

وفي البدء بها كذلك جَذْبٌ لانتباه السامع، وتنبيهٌ له بأنَّ ما يعقبها أمر مهم ذو بـال ينبغي الإصغاء إليه، والتأمل فيه، والعمل بمضمونه.

إن البدء باسم الله في هذه السورة، وفي كل سورة من سور القرآن ما عدا سورة التوبة – يرشد المسلم إلى أن يبدأ أعماله وأقواله بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾؛ طلباً لمعونة الله وتوفيقه، ومخالفة للمشركين الذين يبدؤون أعمالهم بأسماء آلهتهم.

ذلك أن الله تعالى «أدَّب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقديم وصفه بها قبل جميع مهماته، وجعل ما أدَّبه به من ذلك، وعلَّمه إياه منه لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها في افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: «بسم الله» على ما بطن من مراده الذي هو محذوف[(٢)]».

والمحذوف هو متعلَّق الجارِّ والمجرور في﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ المسمى عند البلاغيين إيجاز الحذف[(٣)]؛ لأن الجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: «أقرأ» أو«أتلو» أو

(١) انظر: الكشاف ١/ ١١.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٥٠.

(٣) الإيجاز على قسمين: إيجاز قِصَر وهو أن تكون الألفاظ قليلة ومعانيها كثيرة، وإيجاز حذف، وهو أن يحذف من الكلام حرف من كلمة أو كلمة من جملة أو جملة فأكثر؛ لغرض بلاغي مع وجود دليل على المحذوف. انظر: البلاغة العربية، أسسها وعلومها ٢/ ٢٩-٥٩، تأليف: عبد الرحمن الميداني.

«أبدأ»، أو باسم الله أشرع في أداء الطاعات بحسب الحال والسياق.

وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ [هود: ٤١]؛ لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم(١).

والباء – هنا – باء المصاحبة أو الملابسة وهي باء الإلصاق(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وهذا المعنى هو أكثر معاني الباء وأشهرها؛ لذا يرى الزمخشري أن معنى الملابسة أعرب وأحسن من جعل الباء للآلة؛ لما فيه من زيادة التبرك بملابسة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى(٣).

وقيل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: بالله؛ لأن التبرُّكَ والاستعانة بذكر اسمه، أو للفرق بين اليمين والتيمن(٤)، وللإشعار بأن الفعل المشروع فيه من شؤون أهل التوحيد الموسومة باسم الإله الواحد(٥)، كالتسمية على النُّسك كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] وكالأفعال التي يقصد بها التيمن والتبرك وحصول المعونة.

وإيضاحاً لهذه اللطيفة البلاغية يذكر الطاهر بن عاشور «أن كل مقام يقصد فيه التيمن والانتساب إلى الرب الواحد الواجب الوجود يُعدَّى فيه الفعل إلى لفظ «اسم الله» كقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]...، وكذلك المقام الذي يقصد فيه ذكر اسم الله تعالى كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]...، فمعنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أقرأ قراءة ملابسة لبركة هذا الاسم المبارك(٦)».

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٢١، ٢٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٧.

(٣) انظر: الكشاف ١/ ١٤، والتحرير والتنوير ١/ ١٤٧.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٠.

(٥) انظر: الكشاف ١/ ١٢، والتفسير الكبير ١/ ٢٣، وتفسير أبي السعود ١/ ١١، والتحرير والتنوير ١/ ١٤٦.

(٦) التحرير والتنوير ١/ ١٥٠.

ويذكر ابن القيم بعض الأسرار البلاغية لحذف العامل في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ متأثراً فيها بما ذكره السهيلي في «نتائج الفكر» وهي:

- «أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله فلا يقال: أتلو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أو أبدأ أو أعمل، بل يقال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ويقدر المتعلق متأخراً بحسب السياق.
- أن الفعل إذا حُذِفَ صَحَّ الابتداء بالتسمية في كل قول وعمل وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر؛ فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.
- أن الحذف أبلغ؛ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدَّعي الاستغناء بالمشاهدة على النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا الفعل، وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى[(١)]».

والبدء بلفظ الجلالة (الله)، لأنه العَلَمُ المشهور المختص بالمعبود الحق-سبحانه[(٢)].

وفي ذكر لفظ الجلالة (الله) مقترنا بالوصفين: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لطيفةٌ بلاغية هي التنبيه على أن الذي يستحق أن يستعان به في مجامع الأمور هو الله المعبود الحقيقي المتصف بأنه الإله الحق، الرحمن، الرحيم المتفضل على خلقه بالنعم كلها أولها وآخرها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها[(٣)].

ووجه تقديم اسم الله الذي هو الله على اسمه الذي هو الرحمن، وتقديم اسمه الذي هو الرحمن على اسمه الذي هو الرحيم؛ جريًا على طريقة العرب في أنهم إذا أرادوا الخبر عن مخبر عنه أن يقدموا اسمه، ثم يتبعوه صفاته ونعوته.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٤٣، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٥٠.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٢، والتحرير ١/ ١٤٦.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٢.

«وهذا هو الواجب في الحكم أن يكون الاسم مقدما قبل نعته وصفته؛ ليعلم السامع الخبر عَمَّن الخبر. فإذا كان ذلك كذلك، وكان لله -جل ذكره - أسماء قد حَرَّم على خلقه أن يتسَمَّوا بها خصّ بها نفسه دونهم، وذلك مثل الله، والرحمن، والخالق، وأسماء أباح لهم أن يسمِّي بعضهم بعضًا بها، وذلك كالرحيم والسميع والبصير والكريم وما أشبه ذلك من الأسماء، كان الواجب أن يقدم أسماءه التي هي له خاصة دون جميع خلقه.

فبدأ الله جل ذكره باسمه الذي هو (الله)؛ لأن الألوهية ليست لغيره جل ثناؤه بوجه من الوجوه[1]».

وفي الجَمْعِ بين صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تأكيد للمعنى المراد، وهو الدلالة على أنه تعالى هو المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها[2]؛ لأنه المتصف بالرحمة العامة والخاصة للخلق أجمعين.

فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يتناول جلائل النعم وعظائمها، وأصولها، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ جاء تتميماً؛ ليتناول ما دق منها ولطف[3].

فالجَمْعُ في وصفه -سبحانه- بأنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها.

وهو المختصُّ وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه **رحيم**، ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه **رحمن**. ومن باب أولى ألَّا تجتمع له الصفتان[4].

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٨.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٠.

(٣) انظر: الكشاف ١/ ١٦، ١٨.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢١، ٢٢.

وجاء البدء بوصف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ قبل ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأن وصف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أخص وأعرف من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ولأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص[1].

والجمع بين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في آية واحدة يتضمن تجانساً لفظياً بديعاً؛ لأنهما مشتقان من الرحمة، والتجانس بين الكلمات مظهر من مظاهر الائتلاف بين المعاني والألفاظ الذي تميل إليه النفس، وتتأثر به.

والجمع في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بين هذه الأسماء الثلاثة: ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يتضمن لَوناً بديعياً معنوياً هو التناسب[2]؛ فاسم **الله** عز وجل أقوى الأسماء في تجلي ذاته؛ لأنه أظهر الأسماء في اللفظ وأبعدها معنى عن العقول، فهو ظاهر باطن، يعسر إنكاره، ولا تدرك أسراره. وأما اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فهو يفيد تجلي الحق بصفاته العالية، ولذلك قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] وأما اسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو يفيد تجلي الحق بأفعاله وآياته ولهذا السبب قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[3] [غافر: ٧].

وهناك لطيفة بلاغية أخرى في الجمع بين هذه الأسماء الثلاثة هي «أن المخاطبين في القرآن ثلاثة أصناف كما قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] فقال: أنا **الله** للسابقين، **الرحمن** للمقتصدين، **الرحيم** للظالمين، وأيضاً **الله** هو معطي العطاء، و**الرحمن** هو المتجاوز عن زلات الأولياء، و**الرحيم** هو المتجاوز عن الجفاء.... »[4].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢١.

(٢) هو من الـمُحَسِّن المعنوي الذي يدرس في علم البديع، ويسمى التناسب أو مراعاة النظير، ومعناه الجمع بين الأمر وما يناسبه، وللوقوف على هذا الفن انظر علم البديع. تأليف: د. بسيوني عبد الفتاح فيود ص ٢٩، ط١.

(٣) انظر: التفسير الكبير ١/ ٢٤٤.

(٤) التفسير الكبير ١/ ١٥٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يبرز دعاء الثناء الذي يرشدنا إليه الرب جلّ جلاله.

و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، وهو الثناء الجميل على الله ذي الإنعام والإحسان، وقد يكون على نعمه أو غيرها.

وأُوثر التعبير بـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لأنه أعم من الشكر، ولذا جاء في الحديث: «الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لا يَحْمَدُه[1]».

أما الفرق بين الحمد والمدح والشكر فيتضح من وجوه:

الأول: أن المدح قد يحصل للحي ولغير الحي، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن، أو ياقوتة في غاية الحسن، فإنه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

الثاني: أن المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان.

الثالث: أن المدح قد يكون منهياً عنه، قال عليه الصلاة والسلام: (احثوا التراب في وجوه المداحين)[2] أما الحمد فإنه مأمور به مطلقاً، قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يحمد الناس لم يحمد الله[3]).

الرابع: أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصاً بنوع من أنواع الفضائل، وأما الحمد فهو القول الدال على كونه مختصاً بفضيلة معينة وهي فضيلة الإنعام والإحسان.

---

(١) انظر: الكشاف ١/ ١٩، وانظر الحديث في: مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٤٢٤، رقم الحديث ١٩٥٧٤، كتاب الجامع، باب شكر الطعام، وفي شعب الإيمان ٤/ ٩٦، رقم الحديث، ٤٣٩٥، باب في تعديد نعم الله عز وجل.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٩٧.

(٣) نص الحديث هو الوارد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٨.

وأما الفرق بين الحمد والشكر فهو أن الحمد يعم إذا ما وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.

فقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أولى من قوله: الشكر لله؛ لأن قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ثناء على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إليه أو إلى غيره.

وأمَّا الشكر لله فهو ثناء بسبب إنعام وصل إلى ذلك القائل، ولا شك أن الأول أفضل؛ لأن التقدير كأن العبد يقول: سواء أعطيتني أولم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم(١).

والتعريف في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ تعريف الجنس المعهود، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد.(٢)

أو يكون التعريفُ تعريفَ الجنس الاستغراقي الذي يتناول جميع أنواع الحمد فهو تعريف يفيد العموم(٣).

والأصل في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ النصب؛ لأن المعنى نحمد الله حمداً، ولكن عُدِل به عن النصب إلى الرفع على الابتداء؛ للدلالة على الدوام والثبات، أي الحمد دائم لله ثابت ومستقر. ومنه قوله تعالى: ﴿... قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ...﴾ [هود: ٦٩] رُفع السلام الثاني، للدلالة على أن إبراهيم- عليه السلام – حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأنَّ الرَّفْعَ دالٌّ على معنى ثبات السلام لهم، دون تجدده أو حدوثه(٤).

واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص أي: الحمد كله مختص بالله.

---

(١) التفسير الكبير ١/ ١٧٨، ١٧٩.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ١٩، ٢٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١/ ٦٠ وانظر: حاشية الكشاف ١/ ٢٠. وللوقوف على أنواع التعريف بأل انظر بغية الإيضاح ١/ ٧٠-٧٢، وجواهر البلاغة تأليف أحمد الهاشمي ص ١١٦، ١١٧.

(٤) انظر: الكشاف ١/ ١٩.

وتعريف طرفي الجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يفيد القَصْـر[1]، ويؤكـد المعنى الـمراد، وهو قصر عموم الحمد ودوامه لله وحده.

وقد أكَّد هذا المعنى كذلك اسميةَ الجملة الدالة على ثبوت الحمد واستمراره[2].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أبلغ من «أحمد الله» لوجوه:

أحدها: أنه لو قال: «أحمد الله» فُهِم منه أن القائل قادر على حمـده، لكـن إذا قـال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فُهِم منه أن الله كان محموداً قبل حمد الحامدين، فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد.

وثانيها: أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معناه أن الحمد والثناء حـق لله وملكـه؛ فإنـه تعـالى هـو المستحق للحمد بسبب كثرة نعمه، وأنواع آلائه على العباد، لكن إذا قـال: «أَحْمَـدُ الله»لم يدل على أن الله مستحق للحمد لذاته.

وثالثها: أنه لو قال: «أحمد الله» لكان قد حمد، ولكنه حمد لا يليق بجلالـه، أمـا إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قال: من أنا حتى أحمده؟ لكنه محمودٌ بجميع حَمْدِ الحامدين[3].

وتقديم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على لفظ الجلالة -وإن كان ذكر الله أهـم وأولى؛ لأن المقـام -هنا- مقـام الحمد، «إذ هو ابتدأ أَوْلى النعم بالحمد، وهي نعمة تنـزيل القـرآن الـذي فيه نجاح الداريـن، فتلك المنة من أكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكـمال، لا سيـما وقد اشتمـل القرآن على كمال المعنى واللفظ والغاية، فكـان خطـوره عنـد ابتـداء سماع إنزاله، وابتداء تلاوته مذكراً بما لمنـزِّله تعالى من الصفات الجميلـة، وذلـك يـذكِّر

(١) القَصْر عند البلاغيين معناه تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، وله أساليب منها تعريف طَرَفَي الجملة كقولك: الله الواحد. وللوقوف على معنى القصر وأساليبه انظر: جواهر البلاغة ١٦٥ وما بعدها.

(٢) للوقوف على أغراض التعبير بالجملة الاسمية والفعلية انظر -مثلاً-: كتاب البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ص٨٨، د. فضل حسن عباس.

(٣) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٩١

بوجوب حمده، وألا يُغفَل عنه، فكان المقام مقام الحمد لا محالة[1]».

وربما يقال: إن التسبيح مقدم على التحميد؛ لأنك تقول: «سبحان الله، والحمد لله» فما الوجه البلاغي في البداية بالتحميد؟

والجواب: أن التحميد يدل على التسبيح دلالة التضمُّن، فإن التسبيح يدل على أن الله مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص والآفات، والتحميد يدل مع حصول تلك الصفة على أنه تعالى محسن إلى الخلق، منعم عليهم، رحيم بهم[2].

وأوثر التعبير بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لأنه يدلُّ على معنى المالك المربي، فهو تعالى مالك الـخلق ومربيهم بنعمه[3].

وجاء وصف الربوبية شاملاً للعالمين؛ لكي تتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تُقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة، ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة، وربوبيته القائمة، وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدًا ولا تفتر ولا تغيب[4].

والتعريف في ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يفيد عموم ربوبية الله تعالى لكل أنواع الخلق[5].

وجُمع ولم يُؤْتَ به مفرداً فيقال: «العالم»؛ لأن الجمع قرينة على الاستغراق، إذ لو أُفرد لتوهم أن المراد من التعريف العهد أو الجنس، فكان الجمع تنصيصاً على الاستغراق[6]، الذي جعل هذه الكلمة تتسم بإيجاز القِصرَ البديع.

ولِذِكْر هذه الأوصاف: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ -في

---

(١) التحرير ١/ ١٥٨.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١/ ١٩٤.

(٣) انظر: الكشاف ١/ ٢٠ وتفسير أبي السعود ١/ ١٩.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٣.

(٥) حاشية الكشاف ١/ ٢١.

(٦) انظر: حاشيةالكشاف ١/ ٢٠، ٢١. و التحرير ١/ ١٦٨، ١٦٩.

سياق الحمد- دلالة بلاغية هي التنبيه على اختصاص الحمد به تعالى، وأنه ليس في الوجود أحد أحق منه -سبحانه- بالحمد والثناء بما هو أهله؛ لأنه الرب المالك للعالمين الذين لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته، وهو المُنْعِمُ عليهم بالنعم كلها دقها وجلها، ظاهرها وباطنها، وهو -سبحانه- مالك الأمر كله في الآخرة يوم الثواب والعقاب(١).

وفي الآية الثالثة من السورة وَرَدَ لله تعالى وصفان هما ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اللذان جاءا معرفين بـ «أل» التي أكدت معنى الصفة وكمالها في الموصوف بها، وهو الله تبارك وتعالى.

وهنا ذكر جمهور الأئمة أن وصف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام، وأن القرآن هو الذي جاء به صفة لله تعالى، فلذلك اختص به تعالى حتى قيل: إنه اسم له، وليس بصفة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقال: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠].

وبناءً على هذا فإن في الارتقاء من ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دلالة بلاغية هي أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أخص من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، فتعقيب الأول بالثاني تعميم بعد خاص، ولذلك كان وصف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مختصًا به تعالى، وكان أول إطلاقه مما خَصَّه به القرآن، على التحقيق.

في حين أن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بهذه الصيغةِ يدلُّ على أن الرحمةَ كثيرةُ التعلُّق؛ إذ هو من أمثلة المبالغة؛ ولذلك كان يُطلق على غير الله تعالى(٢)، كما في قوله سبحانه-واصفاً رسوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وابن القيم فرَّق بين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، ولكنه خالف في دلالة الاسمين

---

(١) انظر: الكشاف ١/ ٢٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١/ ٢٠٢، والتحرير ١/ ١٧٢.

الكريمين، فالرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، وكأن الأول الوصف، والثاني الفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، أي صفة ذات له سبحانه، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، أي صفة فعل له سبحانه، فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] و﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ: رحمن بهم، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته[1].

وتقديم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ نظراً إلى أن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في الذكر من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها[2].

والمجيء بهذين الوصفين بعد وصفه تعالى بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يُؤْذِنُ بأن المربوبين ضعفاءُ محتاجون إلى الرحمة في جميع أطوار حياتهم[3].

ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا، وما أعده من العذاب في الآخرة للذين ينتهكون الحرمات؛ لأنها في حقيقتها وغايتها تهدف إلى الرحمة بالعباد، فهي شرعت لتربية الناس على الخير، وزجرهم عن الشر الذي يؤدي بهم إلى الشقاء في الدنيا والآخرة.

وفي إعادة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هنا مع أنها قد جاءت مع البسملة -لطائف بلاغية منها:

- أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به سبحانه إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه.

---

(١) انظر: التفسير القيم ٣٣، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٤٢، وتفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: العصر، والكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين ص ٢٨، تأليف السيد محمد رشيد رضا.

(٢) انظر: التحرير ١/ ١٧٢.

(٣) السابق ١/ ١٧٣.

- وأن بعضهم قد يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر، فأراد تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه؛ ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال، فذكر الرحمن، وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً.
- ومنها -إذا كانت البسملة آية من الفاتحة على القول المختار- أن النبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الناس سورة الفاتحة على أنها منزلة من عند الله تعالى، أنزلها برحمته؛ لهداية خلقه، وأنه صلى الله وسلم عليه لا كسب له فيها ولا صنع، وإنما هو مُبَلِّغٌ لها بأمر الله تعالى، فهي مقدمة للسور كلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف، وكَشْفِ الستار عن المنافقين.
- وإذا كان المراد بالبسملة في أول الفاتحة التنبيه بها على أن تنزيل السورة من الله جاء رحمة بعباده فلا ينافي ذلك أن يكون من موضوعها ما هو مناسب لحكمة تنزيلها، وهو بيان رحمة الله بعباده مع بيان ربوبيته للعالمين، وأنه تعالى الملك الذي يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم، وأنه تعالى بهذه الأسماء والصفات كان مستحقاً للحمد من عباده، كما أنه مستحق له في ذاته، ولهذا نسب الحمد إلى اسم الذات، الموصوف بهذه الصفات.

«والحاصل أن معنى الرحمة في بَسْمَلة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله، فلا يعد ما عساه يكون في أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكرراً مع ما في البسملة، وإن كان مقرونًا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]؛ لأن الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل، وفي السور للمعنى الخاص الذي تبينه السورة[١]».

أمَّا بلاغة الوصف[٢] بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد تلك الأوصاف فإنها تتجلى من

---

(١) انظر: تفسير الفاتحة ٣٠-٣٢.

(٢) وقف البلاغيون عند الوصف، فذكروا من أغراضه البلاغية تفسير الموصوف والكشف عن معناه، وتخصيصه بأوصاف تميزه عن غيره، أو وصفه لغرض المدح. (انظر: بغية الإيضاح ١/ ٨٢، ٨٣.)

حيث إن الله تعالى لـمّا وصف نفسه بأنه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ -وكان ذلك مفيداً التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم- خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة مُشعرة بالتخفيف عن المكلفين عبء العصيان لما أُمروا به، ومثيرة لأطماعهم في العفو عن زللهم بعد وضوح البينات.

لذا كان من مقتضى السياق التعقيبُ بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء يوم ﴿تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ...﴾ [غافر: ١٧]؛ لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب، لحفظ مصالح العالم[١]، فجاء الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليتناسب ذلك مع طبيعة النفس البشرية التي لا يستقيم أمرها، ولا يصلح حالها إلا بالجمع بين هذين الأمرين: الترغيب والترهيب الذي كان سمة بارزة في الأسلوب القرآني.[٢]

وكلمة ﴿مَٰلِكِ﴾ أو ﴿مَلِكِ﴾ في قراءة أخرى[٣]، ترجع تصاريفها إلى معنى الشد والضبط[٤]؛ فهي مؤذنة بإقامة العدل والصرامة في تطبيقه؛ لأن شأن الملك أن يقوم بصلاح الرعية ورفع المظالم عن أفرادها، ولوقيل: رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين في الاقتصار على رحمة الرب وصفحه، دون النظر إلى إقامة الجزاء على الأعمال صالحها وسيئها.

وإيثار كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ أي الجزاء على كلمة «الحساب»؛ للإشعار بأن معاملة العامل تكون بما يعادل أعماله المجزيَّ عليها في الخير والشر، كما جاء في الأثر: «كما تدين تدان»، وذلك العدل الخاص من الله لعباده، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ ...﴾ [غافر: ١٧].

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٧٢.

(٢) الجمع بين الترغيب والترهيب، والهدوء والإثارة سمة بلاغية كبرى من سمات الأسلوب القرآني.وللوقوف على سمات الأسلوب القرآني انظر: من بلاغة القرآن لأحمد بدوي ٢٤٤- ٢٥٠.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ٦٨.

فوَصْفُه تعالى بأنه مالك يوم العدل الصِّرف وصف له بأشرف معنى الملك[1]...

والتعبير بـ ﴿مَٰلِكِ﴾ مع إضافته إلى ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، يدلان على أن الله وحْده هو المتصرف في ذلك اليوم، فلا يستطيع أحد هناك أن يدعي شيئاً، ولا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذنه[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تبرز بلاغة الترقي في وصفه تعالى، أولاً: بأنه رب العلمين كلهم، وثانياً: بأنه الرحمن الرحيم؛ لإفادة عظم رحمته، وثالثاً: بأنه ملك يوم الدين، وهو وصف بما هو أعظم مما قبله؛ لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود[3].

والتناسب بين هذه الأوصاف الجليلية واضح، وإيجاز القِصَر ماثل في نظمها؛ لأنها تومئ بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ إذ أتت هذه الأوصاف مبينة أن الله مستحق للحمد الكامل؛ لأنه رب العالمين؛ ولأنه الرحمن الرحيم؛ ولأنه مالك يوم الدين[4]؛ لذا جاء الفصل بين هذه الآيات الثلاث لكمال الاتصال[5].

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٧٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٥.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٥، والتحرير والتنوير ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٤) انظر: السابق ١/ ١٧٧.

(٥) المراد بالفصل لكمال الاتصال أن تكون الجملة الثانية متصلة بالأولى اتصالاً كاملاً تاماً، مثل أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى من حيث معناها، كما هو الحال بين هذه الآيات الثلاث، والفصل والوصل من أهم الفنون البلاغية التي وقف عندها علماء البلاغة لبيان أسرارهما في القرآن الكريم، والشعر والنثر؛ للوقوف على هذا البحث البلاغي، انظر على سبيل المثال: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ١٥٦ وما بعدها، وانظر: كتاب البلاغة فنونها وأفنانها ص ٤٠٥، وما بعدها.

أما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهو استئناف ابتدائي، جاء بعد أن أتم الحامد حمد ربه، آخذاً في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له، فانتقل من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار ما يجب لله على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة[1].

وفي هذه الآية يبرز أسلوب الالتفات[2]؛ إذ يرد الخطاب فيها موجهاً إلى الله تعالى بعد أن كان القول في الآيات السابقة جارياً على أسلوب الغائب.

بيان ذلك أن الانتقال جاء من أسلوب الحديث بطريق الغائب ابتداء من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب ابتداء من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة.

وهذا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام، وعلى مسلك البراعة حسبما يقتضي المقام؛ لأن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس، واستمالة القلوب[3].

وسرُّ الالتفات هو أن الله تعالى لَمَّا جاء ذكره في مطلع السورة بالحمد، وأُجري عليه تلك الصفات العظام تَعَلَّق العلمُ بمعلومٍ عظيم الشأن، حقيق بالثناء، وغاية الخضوع، والاستعانة به في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له؛ لذلك التميز[4].

ومما يزيد الالتفات وقعاً في الآية أن فيه براعةَ تخلصٍ من الثناء إلى الدعاء الذي يقتضي

(١) انظر: التحرير ١/ ١٧٧.

(٢) أسلوب بلاغي يُقْصد به الانتقال من صيغة إلى صيغة، مثل الانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض. انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢/ ١٨١ وما بعدها.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٥، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٦٧.

(٤) انظر: الكشاف ١/ ٢٣، ٢٤، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥، ٢٦.

الخطاب فكان قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تخلصاً بارعاً يجيء بعده ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

وتقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ على ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾؛ لقصد الاختصاص، أو الحصر، وهو حَصْرٌ حقيقيٌّ؛ لأن المؤمنين لا يعبدون إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ...﴾ [الزمر: ٦٤] ونحو ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ...﴾ [الأنعام: ١٦٤] والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة[2].

وجملة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جاءت معطوفة على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم تجئ مفصولة بطريقة تعداد الجمل في مقام التضرع ونحوه من مقامات التعداد والتكرار؛ للإشارة إلى خطور الفعلين جميعاً في إرادة المتكلم بهذا التخصيص أي نخصك بالاستعانة أيضا مع تخصيصك بالعبادة[3].

وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أسلوب قصر قائم على تقديم ما حقه التأخير[4]، يفيد التعريض بالمشركين وغيرهم الذين يعبدون غير الله، ويستعينون بغيره سبحانه وتعالى[5].

والتعبير بالعبادة -هنا- أدق من غيرها، وأبلغ من نحو «نصلي» أو «نوحِّد»... إلخ؛ لأن العبادة أقصى غايةِ الخضوعِ والتذلل، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى؛ لأنه مولي أعظم النعم، فكان حقيقًا بأقصى غاية الخضوع[6].

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٧٩.
(٢) انظر: الكشاف ١/ ٢٣، ٢٤، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٥، ٢٦.
(٣) انظر: التحرير ١/ ١٨٥، ١٨٦.
(٤) وهو تقديم معمول الفعلَيْن «نعبد» و«نستعين»، وهذا الأسلوب يفيد الاختصاص غالبا كما جاء في المثل: إياك أعني فاسمعي يا جارة، وفي قول الشاعر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني   أرى الأرضَ تُطْوَى والأَخِلَّاءُ تَذْهَبُ.

وكما في الآية التي معنا. انظر أسلوب القصر: دراسة تحليلية ص ٢٢٠، تأليف د. بسيوني عرفة رضوان.
(٥) التحرير ١/ ١٨٥.
(٦) انظر: الكشاف ١/ ٢٤، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٧.

والمقصود بالاستعانة هنا: الاستعانة على الأفعال المهمة كلها التي أعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من تَوَجُّهات النفوس إلى الخير، وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل. وقرينة هذا المقصود ورود الاستعانة في فاتحة الكتاب، ووقوع تخصيص الإعانة عقب التخصيص بالعبادة.(١)

وقُرِنت الاستعانة بالعبادة، ليُجْمعَ بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه، ويحتاجون إليه من جهته(٢).

وجاء ذِكْرُ العبادة في هذه السورة بعد قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾؛ لأن العبادة تذكِّر بالمجازي في ذلك اليوم، فعدم حضور ذاته في نفوس العباد يؤدي إلى نسيانه.

كما أن العبادة تُذَكِّر العباد بالتخلق بآداب الإسلام، لئلا يفسد نظام الحياة.

ووجه تقديم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ مرده إلى أن العبادة تقربٌ للخالق تعالى، ووسيلة إلى الصلة به، فهي أجدر بالتقديم في المناجاة.

وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق؛ لأنها طلب للحاجة، والتيسير في الأمور.

ومن جملة تلك الأمور طلب الإعانة على العبادة، فكانت العبادة متقدمة على الاستعانة في التعقل(٣).

وهناك مَظْهَرٌ بلاغي آخر، هو أن سؤالَ الله الهدايةَ إلى الصراط المستقيم أجلُّ المطالب، ونيلَه أشرفُ المواهب؛ لذا فقد علَّم الله عباده كيفية سؤاله بأن يُقدِّموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم إعلان عبوديتهم له، وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: تَوَسّلٌ بأسمائه وصفاته، وتوسُّلٌ إليه بعبوديته، فهما وسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء(٤).

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٨٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٧ والتحرير ١/ ١٨٢.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٧والتحرير ١/ ١٨٦.

(٤) انظر: التفسير القيم ٢٣.

ومع هذا فقد نتج من تأخير كلمة: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ مظهر بلاغي آخر هو جمال التناسب بين فواصل السورة المبنية على الحرف الساكن أو القريب في مخرج اللسان(١).

وهناك لطائف بلاغية أخرى كثيرة لتقديم العبادة على الاستعانة منها:

- أن العبادة غاية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والاستعانة وسيلة إليها.
- ومنها: أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله) في حين أن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له وهو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة(٢).

وأُعيد لفظ ﴿إِيَّاكَ﴾ مع ﴿نَسْتَعِينُ﴾؛ ليظهر معنى الحصر في كلتا الجملتين، المفيد أن كلاً من العبادة والاستعانة مقصود بالذات فلا يستلزم كلٌّ منهما الآخر، مع التأكيد للمعنى المراد، وإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب(٣).

وأُطْلِقت الاستعانة، أو حُذِف متعلق «نستعين» الذي حقه أن يذكر مجروراً بعلى؛ ليفيد عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله؛ تأدباً معه سبحانه(٤).

والتعبير بضمير الجمع في ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ دون المفرد؛ يشير إلى أن هذه المحامد صادرة من جماعات المسلمين، وأنه تعالى هو الذي يجب أن يتجه إليه الخلقُ كلُّهم بالعبادة والاستعانة، وهذا أبلغ في الثناء من أعبدُ وأستعين(٥).

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٨٦.
(٢) انظر: التفسير القيم ٦٦، ٦٧.
(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٧، والتفسير القيم ٦٨، ٦٩، وتفسير الفاتحة ٤١.
(٤) انظر: الكشاف ١/ ٢٤، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٧، والتحرير ١/ ١٨٤.
(٥) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٨، والتحرير ١/ ١٨٦.

ومن قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يبدأ التصريح بدعاء المسألة إلى آخر السورة.

ولم تعطف هذه الآية على ما قبلها؛ لأنها إنشائية دعائية أمرية، وما قبلها خبر يتضمن دعاء الثناء.

فبعد أن حمد المؤمنون ربهم، ووصفوه بصفات الجلالة، ثم أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فأقبلوا عليه بالخطاب -أفضوا-هنا- إلى سؤال ربهم فقالوا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

والتعبير بـ ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ دون غيره، له دلالة بلاغية هي أن الهدايةَ الدلالةُ بتلطُّف، ولذلك خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول، لأن التلطف يناسب من أريد به الخير[1].

وكلمة ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ تتضمن إيجازاً بديعاً أشار إليه ابن القيم حين طَرَحَ هذا السؤال: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان، أو هداية التوفيق والإلهام؟

والجواب أن الهدايةَ ثلاثة أنواع:

الأول: هداية عامة مشتركة بين الخلق، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أي: هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها.

الثاني: هداية البيان والدلالة، والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا لا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٨، والتحرير ١/ ١٨٧.

أي: بينا لهم وأرشدناهم فلم يهتدوا.

الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلايتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

والهداية المسؤولة في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تتناول النوع الثاني: هداية البيان والدلالة، والنوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وبخاصة طلب التعريف والبيان والإرشاد، والتثبيت ودوام الهداية وتمامها وكمالها[1].

والمتأمل في فعل الأمر ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ يجده ورد مقرونا بضمير الجمع، والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها بضميرالإفراد، قائلا: ربِّ اغفر لي، وارحمني، وتب علي. فما سر الإتيان بضمير الجمع؟

السرُّ البلاغي في ذلك؛ ليكون مطابقاً لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فيكون الإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، أي: نحن - معاشر عبيدك - مُقِرُّون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك، ولا أخالف أمرك، فإذا قال: أنا وكل من في البلد عبيدك، وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير، وأنا واحد منهم.

وهكذا في الآية، دَلَّ ضمير الجمع على أنني وغيري ممن يقرأ سورة الفاتحة، ويدعو بهذا الدعاء عبيدك مشتركون في عبادتك، والاستعانة بك، وطلب الهداية منك، ومع هذا تضمن ضمير الجمع الثناء على الرب بسعة مجده، وكثرة عبيده، وكثرة سائليه ما لايتضمَّنُه لفظ الإفراد؛ فمقام الخلق كلهم أمام ربهم مقام عبودية وافتقار إليه تعالى،

(١) انظر: بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية تحقيق يسري السيدمحمد ١/ ٢٥٠-٢٥٤.

وإقرار بالحاجة إلى استعانته وهدايته(١).

وربما يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال الذي طَرَحه ابن القيم رحمه الله(٢) وهو: لم قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فعدَّى الفعل بنفسه ولم يعدِّه بـ «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، أو باللام كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وما السر البلاغي في هذا الاختلاف؟

والجواب أن فِعْلَ الهدايةِ يتعدَّى بنفسِهِ تارة، وبحرف «إلى» تارة، وباللام تارة، كما في الشواهد السابقة.

والقاعدة في بيان السر البلاغي، وتحديد الفرق، هي أن الفعل الـمُعَدَّى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له. وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فيجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فَيُشْرِبون الفعل المتعدي به معناه، أو يُضمِّنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ...﴾ [الإنسان: ٦] فإنهم يضمنون يشرب معنى يروى، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار.

وبناءً على ما تقدم فإنَّ فِعْلَ الهداية متى عُدِّي بـ «إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية

---

(١) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٥٤

(٢) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٤

المطلوبة، فجيء بحرف الغاية كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فجيء باللام الدالة على الاختصاص والتعيين كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي: مختصاً بالهداية للتي هي أقوم.

وإذا تَعَدَّى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعريف والبيان والإلهام فالمسلم إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو يطلب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له، ويلهمه إياه، ويُقدِره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه..

فتجريد الفعل ﴿ ٱهْدِنَا﴾ من الحرف والإتيان به معدى بنفسه؛ ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو جاء معدى بحرف لتعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف(١).

وأُوثر التعبيرُ بـ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ دون الطريق لأسرارٍ بلاغية منها:

أولاً: أنه مشتق من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعاً سهلاً، فسُمِّي الطريق صراطاً؛ لأنه يسترط المارة فيه(٢).

ثانياً: أن الصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود. فلا تسمي العرب الطريق المعوج والمسدود والصعب صراطاً.

ثالثاً: أن الصراط على وزن «فِعال»؛ لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلْق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثيرٌ في المشتملات على الأشياء، كاللِّحاف والخِمار والفراش(٣).

وفي التعبير بـ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دقة بالغة؛ لأنه يتناول ملة الإسلام المتضمنة

---

(١) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢) انظر: لسان العرب مادة: سرط.
(٣) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢١

لمعاني الهدى والسعادة في الدارين.

ويتناول طَلَبَ البُعْدِ عن الزيغ والشبهات في الدين والدنيا.

ويتناول طلب البيان والإلهام والتوفيق إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال(١).

وحقيقة الصراط المستقيم: الطريق الذي لا عوج فيه ولا التواء.

ولكنه-هنا-جاء تصويراً(٢) جميلاً لتلك المعاني التي تناولتها عبارة ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فالصراط في هذه الآية تصويرٌ لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله؛ لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه و﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تصوير للحق البين الذي لا تخلطه شبهة باطل فهو كالطريق الذي لا تتخلله عوائق ومتاهات(٣).

فالمسلمون بهذا القول يَدْعُون ربهم أن يهديهم إلى طريق الحق والرشاد الذي يحقق لهم الأمن – بإذن الله – من الضلال.

والمتأمل في كلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يجدها وردت معرفة باللام، فهل لهذا التعريف سر بلاغي؟

الجواب: أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف، كما هو الحال هنا في سورة الفاتحة، اقتضت أنه أحقُّ بتلك الصفةِ من غيره، فإذا قيل: جالس عالماً كان له دلالة مختلفة لو قيل: جالس العالم، فالأول مطلق أيَّ عالم، والثاني مقيد بسبب التعريف

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٣٠، والتحرير ١/ ١٩١.

(٢) المقصود بالتصوير هنا أسلوب الاستعارة التي تعد من أهم صور البيان، والاستعارة في الآية استعارة تصريحية قائمة على التشبيه أي تشبيه الإسلام الذي يحفظ الناس من الضلال بالصراط، وكذلك جاء في الآية تشبيه الحق البين الخالي من الشبهات بالمستقيم (وللوقوف على فن الاستعارة وأقسامها وصورها انظر –مثلاً– كتاب: القرآن والصورة البيانية ص١٧١ وما بعدها للدكتور عبد القادر حسين).

(٣) انظر: التحرير ١/ ١٩١.

بـ «أل» أي: العالم الراسخ في العلم المعروف بهذا الوصف.

وهنا في سورة الفاتحة لو قال: «اهدنا صراطاً مستقيماً» لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط «ما» مستقيم، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المُعَيَّن الذي نصبه الله تعالى لأهل طاعته، وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر، فاللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو طلب الهداية إلى شيء معهود، قد قام في القلوب معرفته، والتصديق به، وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف(1).

فإن قيل: لم جاء منكراً في قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وفي آيات أُخر(2).

والجواب: أن هذه الآياتِ ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفاً لهم، فلم يجئ معرفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تَقَدَّمه في اللفظ معهود تكون اللام راجعة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين:

الأول: أن يكون لها معهودٌ ذهني.

الثاني: أن يكون لها معهودٌ ذِكْري لفظي.

وإذ لا واحد منهما في آية الفتح فالتنكير هو الأصل بخلاف قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطَبين أن لله صراطاً مستقيماً هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطَبُ سبحانه المسؤولُ من هدايته عالماً به دخلت اللام عليه فقال: ﴿ ٱهْدِنَا

(1) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(2) مثل آية الأنعام: ٨٧، وآية: ١٦١.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1].

وجاء قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون عاطف؛ لكمال الاتصال بين هذه الآية والتي قبلها.

فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم.

وفائدة البدل التوكيد، لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأن الطريق المستقيم هو صراط المسلمين القائم على الهدى الرباني[2].

وهذا البدل يُسَمَّى في البلاغة العربية أسلوب الإطناب[3]، الماثل هنا في الإيضاح بعد الإجمال، وهو البدل في الدعاء، مع أن الداعي مُخاطِبٌ لمن لا يحتاج إلى البيان.

والغرض البلاغي من هذا البدل أن الآية وردت في معرض تعليم العباد الدعاء، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده، مما لا يتم الإيمان إلا به. فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء، وجب أن يكون الطلب للهداية، والرغبة فيها مصرحاً فيه بالاعتقاد الصحيح إلى ربه، وهو في هذه السورة أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته، وحباهم بكرامته؛ فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً، والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم، وإظهار الحق الذي في نفسه؛ فلذلك أَبدَل وبَيَّن لهم؛ ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[4].

---

(١) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ٢٥ والتحرير ١/ ١٩٢.

(٣) أسلوب الإطناب: فن من فنون البلاغة العربية يقصد به زيادة اللفظ على المعنى لغرض بلاغي. وللوقوف على معناه وصوره في القرآن والشعر انظر: (كتاب الصناعتين ١٩٠-١٩٥ والمثل السائر ٢/ ٣٩١-٤٠٥، والبلاغة العربية: أسسها وعلومها للميداني ٢/ ٦٠-١١٤).

(٤) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٦.

وفي ضِمْنِ هذا الدعاءِ المهم أغراضٌ بلاغية أخرى منها:

الأول: فائدة الخبر[١] وهي الإخبار عنه بالاستقامة، وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته.

الثاني: لازم فائدة الخبر، وهو إقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه[٢].

وربما يقال: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

والجواب عن ذلك والسر البلاغي فيما قرَّره ابن القيم رحمه الله حين ذكر «أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه، بل البدل نوعان:

نوع يكون فيه الأول في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكلِّ وبدل الاشتمال؛ لأن المقصود هو الثاني لا الأول.

ونوع لا يُنوَى فيه طرح الأول، وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه، فإنه لما قال: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصاً بنا، أم سلكه غيرنا ممن هداه الله فقال: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾»[٣]

---

(١) وقف البلاغيون عند الكلام الخبري والإنشائي، وبينوا أغراضهما البلاغية المتعددة التي يدل عليها السياق وقرائن الحال، وذكروا من أغراض الخبر فائدة الخبر، ولازم الفائدة (للوقوف على أغراض الخبر انظر الكتب البلاغية الآتية: بغية الإيضاح ١/ ٣٣، ٣٤، وجواهر البلاغة ٥٥، ٥٦، والبلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ١٠٦-١١٠).

(٢) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٦.

(٣) بدائع التفسير ١/ ٢٤٣.

وأضيف ﴿صِرَٰطَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: إلى الموصول المبهم دون أن يقول النبيين والمرسلين؛ لتكون الآية عامة تتناول جميع طبقات المنعم عليهم من المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.(1)

وفي كلمة ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ إيجاز بديع؛ لأن النعمة تدل على الحالة الحسنة في صورها المتعددة، وهنا شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة، ولخيرات الآخرة وهي الأهم، فتشمل النعم في الدنيا، الموهوب منها والمكتسب، والروحي، والجسمي، وتشمل النعم في الآخرة؛ لذا أُطلق الإنعام؛ ليشمل كل إنعام(2).

وفي تخصيص أهل الصراط المستقيم بالنعمة دليل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم.

وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمة.

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والنعمة من جنس الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون(3).

وربما يقال: ما السر البلاغي في التعبير بـ «غير» في قوله سبحانه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون أن يقال: لا المغضوب عليهم؟

والجواب: أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وأما «غير» فتكون تابعة لما قبلها وهي صفة ليس إلا..

ولذا كان إخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا

---

(١) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٢٣.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ١٨.

(٣) التفسير القيم ١٢.

يُعلم إذا عُرِف فرقُ ما بين العطف والصفة في هذا الموضع فإذا قيل: «**صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم**» أفاد العطفُ بها نفيَ إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم، كما هو مقتضى العطف حين تقول: «جاء زيد لا عمرو» فأثبت المجيء لزيد ونفيته عن عمرو.

أما الإتيان بكلمة ﴿غَيْرِ﴾ في الآية فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصف الذين أنعم الله عليهم بوصفين:

الأول: أنهم منعم عليهم، **والثاني**: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفادت كلمة ﴿غَيْرِ﴾ ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم؛ فجاء العطف بها متضمناً صفتين: صفة ثبوتية، وهي كونهم منعماً عليهم، وصفة سلبية، وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله[(١)].

وفي التعبير بـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ دقة بالغة في الدلالة على المعنى المراد:

فـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم كلُّ من عصى الله، واستخف بالديانة عن عمد، وعن تأويل بعيد جداً، دفع إليه غلبةُ الهوى، فترك الطريق المستقيم عناداً ومكابرة، فاستحقَّ غضبَ الله تعالى سواءً اليهود أو غيرهم من الأمم المغضوب عليهم.

و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم كلُّ من حَرَّف الدينَ الحق عن عمد وعن سوء فهم، فضل عن طريق الهدى سواء النصارى أو غيرهم من الأمم الضالة[(٢)].

حدَّد ابن القيم بعبارة موجزة واضحة المراد بالمغضوب عليهم بأنهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، وأن الضالين هم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه[(٣)].

---

(١) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٣٩.

(٢) انظر: التحرير ١/ ١٩٩.

(٣) انظر: التفسير القيم ٤٨.

وجاء التعبير في أهل الغضب باسم المفعول، وفي الضالين باسم الفاعل؛ لأن «أهل الغضب من غضب الله عليهم، وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق ولا الـمُضلَّين مبنياً للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم.[1]»

والمجيء بـ ﴿لَا﴾ قبل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فيها تأكيد للمعنى المراد، وفيها ائتلاف مع ﴿غَيْرِ﴾؛ لما تضمنته من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم، ولا الضالين[2].

وذكر ابن القيم رحمه الله أسراراً بلاغية أخرى منها:

١. أن العطف بها أَكَّد على أن المرادَ المغايرةُ الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده فلو لم يُذكر ﴿لَا﴾ وقيل: «غير المغضوب عليهم والضالين» أُوهِمَ أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين لا ما غاير كلَّ نوعٍ بمفرده، فإذا قيل: «ولا الضالين» كان صريحاً في أن المرادَ صراطُ غيرِ هؤلاء وغير هؤلاء.

٢. أن العطف بها رفع تَوهُّمَ أن الضالين وصفٌ للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد وُصِفوا بالغضب والضلال، وأن العطف دخل بينهما، كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض، فلما دخلت ﴿لَا﴾ عُلِم أنهما صنفان متغايران..

٣. أن المجيءَ بها أحسنُ في الأسلوب مما لو قيل: «غير المغضوب عليهم، وغير الضالين»؛ لأنها أقلُّ حروفًا من ﴿غَيْرِ﴾ من ناحية، ولتفادي تكرار الكلمة وَثِقلها الحاصل بالنطق بـ ﴿غَيْرِ﴾ مرتين من ناحية أخرى.

٤. الإتيان بـ ﴿لَا﴾ مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم، كما نُفيَ عنهم الضلال؛ لأن ﴿لَا﴾ إنما يُعطَف بها بعد النفي، فهي أدخل في النفي من ﴿غَيْرِ﴾.[3]

---

(١) بدائع التفسير ١/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ٢٥، وتفسير أبي السعود ١/ ٣٠، والتحرير ١/ ١٩٢.

(٣) انظر: بدائع التفسير ١/ ٢٥٠.

وفي استحضارِ الـمُنْعَم عليهم بطريق الموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مع إسناد فعل الإنعام عليهم إلى ضمير الجلالة- فيه تنويه بشأنهم، خلافًا لغيرهم من المغضوب عليهم والضالين[1].

وأُضِيفت النعم إلى الله؛ لأنه سبحانه المنفرد بالنعم ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ...﴾ [النحل: ٥٣] فأُضِيفَ إليه تعالى ما هو منفرد به. وإن أُضِيفت النعمُ إلى غيره؛ فلكونه طريقاً ومجرى لها.

أما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته، وأنبياؤه، ورسله، وأولياؤه، يغضبون لغضبه، فكان في عبارة ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ تناسب مع هذا المعنى[2].

فالعدول في ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخير إليه عز وجل دون أضدادها[3]، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۞ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

كما أن في حذف فاعل الغضب إشعاراً بإهانة المغضوب عليهم، وتحقيرهم، وتصغير شأنهم، في حين أن في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعَم عليهم، والإشادة بذكرهم ورفع قدرهم ما ليس في حذفه.

ووزان ذلك إذا رأيت من قد أكرمه ملكٌ وشرَّفه، ورفع قدره فقلت: «هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه، وأعطاه ما تمنى»، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك:

---

(١) انظر: التحرير ١/ ١٩٣.

(٢) انظر: التفسير القيم ١٢، ١٣.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٣٢. وانظر روح المعاني ١/ ٩٧.

«هذا الذي أُكرم وشُرِّف وأُعطي»[(١)].

وجاء البدءُ بـ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ قبل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن المغضوبَ عليهم أكثرُ مذمةً عند الله، وأشد إثماً، لأنهم عَصَوا الله عن تعمُّد؛ لذا كانوا أولى بالتقديم؛ للتنبيه من أول الأمر على الحذر من صفاتهم.

وفي عطف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ على ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ سرٌّ بلاغي قائم على بلاغة الترقي؛ لأن في العطف هنا ارتقاءً في التعوذ من شر سوء العاقبة؛ فانتقل من نفي الأقوى إلى نفي الأضعف، مع رعاية الفواصل.

والملاحظ أن التعوذ من الضلال الذي جلب لأصحابه غضب الله، لا يغني عن التعوذ من الضلال الذي لم يبلغ بأصحابه تلك الدركات[(٢)].

والمتأمل في مجموع قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يلحظ تقابلا فنيا عجيبا؛ لأن الإنعام حفظ من الله ورحمة، والغضب والضلال ضياع ونقمة[(٣)].

فهذا التقابل جاء بين الهداية والنعمة من ناحية، والغضب والضلال من ناحية أخرى، فذكر –تعالى– المغضوب عليهم، والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم[(٤)].

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يجد أنه تضمن أسلوب إنشاء وأسلوب خبر: أما الإنشاء فهو صيغة

(١) انظر: التفسير القيم ١٣.

(٢) انظر: التحرير ١/ ١٩٦، ١٩٧.

(٣) المقصود بالتقابل هنا المطابقة التي يعرِّفها بعض البلاغيين بأنها الجمع بين أمرين متضادين؛ وإذا كان التقابل بين أكثر من أمرين سمي مقابلة؛ وبعض الباحثين يطلق عبارة صحة المقابلة على فن المطابقة، وفن المقابلة في آن واحد.للوقوف على هذين الفنَّين البديعيين انظر: الصورة البديعية بين النظرية والتطبيق. د. حفني محمد شرف، القسم الثاني ص ٧٣-١١٢ ط ١٣٨٥هـ.

(٤) انظر: التفسير القيم ١٣.

الأمر[1] التي بمعنى الدعاء، أما الخبر فهو قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ...﴾ إلى آخر الآية.

وهذا الخبر له غرض رئيس، هو فائدة الخبر الماثل في أن الصراط المستقيم المطلوب الهداية إليه هو صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وله أغراض أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، أوبعبارة أخرى من سياق القصص القرآني، وقرائن أحوال الأمم التي جاء خبرها في القرآن الكريم، وتلك الأغراض البلاغية الأخرى يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- إرشاد المسلمين إلى التعوذ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير، بحسب زمانهم، بدعوة الرسل إلى الحق، فتقلدوها، ثم طرأ عليهم سوء الفهم فغيروها، وما رعوها حق رعايتها.

٢- تحذير المسلمين من أن يكونوا مثلهم في بطر النعمة، وسوء الامتثال، وفساد التأويل، وتغليب شهوات الدنيا على إقامة الدين؛ لئلا يحق عليهم غضب الله تعالى، كما حق على اليهود.

٣- الترهيب من حال الذين هُدوا إلى صراط مستقيم، فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية... والظاهر أنهم لم يحق عليهم غضب الله قبل الإسلام؛ لأنهم ضلوا عن غير تعمُّدٍ، فلم يسبق غضب الله عليهم قديمًا، والنصارى من جملة هؤلاء.

٤- الذم والتنديد بالمغضوب عليهم، والضالين الذين هم فرق الكفر والفسوق، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك، واستخفَّت بالديانة عن عَمْدٍ،

---

(١) الكلام يأتي على قسمين: خبر وإنشاء، والإنشاء على قسمين: إنشاء طلبي وغير طلبي، والإنشاء الطلبي له أساليب خمسة هي: الأمر، والنهي، والنداء، والتمني، والاستفهام، وما كان على خلاف هذه الأساليب فهو الخبر. للوقوف على أساليب الإنشاء وأغراضه انظر على سبيل المثال: كتاب جواهر البلاغة ٦٩-٩٥.

أو عن تأويل بعيد جداً، والضالون جنسٌ للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم، وقلة إصغاء، وكلا الفريقين مذموم؛ لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق، وصرف الجهد إلى إصابته، واليهود من الفريق الأول، والنصارى من الفريق الثاني[(١)].

التأمين بعد قراءة الفاتحة:

وبعد النظر في الخصائص البلاغية التي احتوتها سورة الفاتحة يجدر بنا -في الختام- أن نشير إلى مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة، أي قول: آمين. بمعنى اللهم استجب لنا، وهي ليست من الفاتحة باتفاق.

قال القرطبي في تفسيره: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وُضِعَ موضع الدعاء.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (قلت يا رسول الله: ما معنى آمين؟ قال: رب افعل). وقال الترمذي: معناه لا تُخيِّب رجاءنا[(٢)].

وفي مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة نورد طائفة من الأحاديث التي تدل على ذلك:

فقد جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أَمَّنَ الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه)[(٣)].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإنه من وافق قولُه

(١) انظر: التحرير ١/ ١٦٩.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٢٨، وانظر: فتح القدير ١/ ٢٥، ٢٦.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٢٧٠، رقم الحديث ٧٤٧، كتاب أبواب صفة الصلاة، باب جهر الإمام بالتأمين. وانظر: صحيح مسلم ٤/ ٣٤٩، رقم الحديث ٩١٤، كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين.

قولَ الملائكة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه[1]).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا يقول: (لا تبادروا الإمام، إذا كبر فكبروا، وإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقولوا: آمين. وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد)[2].

وفي صحيح مسلم كذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال القارئ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقال من خلفه: آمين، فوافق قولُه قولَ أهل السماء غفر له ما تقدم من ذنبه[3]).

وجاء في سنن أبي داود عن وائل بن حجر -رضي الله عنه- قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قرأ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين، ورفع بها صوته)[4].

* * *

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٧١، رقم الحديث ٧٤٩.

(٢) السابق ٤/ ٣٥٥، رقم الحديث ٩٣١، كتاب الصلاة، باب النهي عن مبادرة الإمام بالتكبير وغيره.

(٣) السابق ٤/ ٣٥١، رقم الحديث ٩١٩، كتاب الصلاة، باب التسميع..

(٤) سنن أبي داود ١/ ٣٠٩، رقم الحديث ٩٣٢، كتاب الصلاة، باب التأمين وراء الإمام.

الخاتمة

بعد هذه الأضواء التي ألقيناها على الإعجاز البلاغي في سورة الفاتحة يبرز أمامنا عِظَمُ بلاغتها النابعة من دقة كلماتها، وغزارة معانيها؛ فهي تضمنت نوعَي الدعاء، وهما دعاء الثناء، ودعاء الطلب، اللذان يمثلان بإيجاز بديع **الإرشادات الربانية التي يدعو إليها الكتاب الكريم في جميع سوره.**

فقد ظهر من تحليلنا البلاغي أن آيات السورة كلها دعاء ثناء على الله بأعظم عبارات الثناء، ودعاء طلب لما يسعد به الإنسان في الحياة الدنيا والأخرى، وأنها السورة التي تميزت بهذين النوعين من الدعاء، واقتصرت عليهما.

ولعل هذا هو السر في البدء بها، وفي وجوب قراءتها على الإمام والمأموم في كل ركعة من الصلوات.

وقد تميزت هذه السورة بجملة من الدلائل الكبرى على إعجازها البلاغي فأضحت جديرة بأن تسمى أم القرآن. ومن تلك الدلائل مايأتي:

- أنها تدل على أصول المعاني التي يهدف القرآن إلى تقريرها في النفوس من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.
- أنها من أسباب شفاء القلوب فقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يتضمن الشفاء من مرض الضلال، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد.
- أنها تشتمل على الرد على جميع الـمُبْطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذه السورة في كلماتها وتراكيبها تضمنت أسراراً وفنوناً بلاغية كثيرة يمكن

تلخيص أبرزها فيما يأتي:

١. حُسن الافتتاح بالبسملة والحمد المتضمن دعـــاء الـثناء.

٢. الإيجاز المسمى عند البلاغيين إيجاز القِصَر القائم على أداء المعاني الكثـيرة بألفــاظ قليلة، وهذا الإيجاز ماثل في آيات السورة كلها.

٣. أسلوب القَصْر الذي ورد في السورة عن طريق تعريف طرفي الجملة في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتقديم ما حقه التأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٤. التأكيد للمعاني المرادة عن طريق الدقـة في اختيـار الكلـمات التـي تـشع بالبلاغـة والإيجاز.

٥. الالتفات في الأسلوب بالانتقال من الغيبة إلى الخـطاب.

٦. الإطناب وهو: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة بلاغية، الماثـل في تكريـر ﴿إِيَّاكَ﴾ في موضعين، وفي التفصيل بعد الإجمـال في ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ مـع ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٧. التجانس في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المسمى جناس الاشـتقاق.

٨. الفواصل المؤثرة في النفس القائمة على اتفاق مـخارج الحروف أحياناً، وعلى قربها أحيانًا أخرى.

٩. التصوير النابع من توجيه الخطاب إلى الله في ﴿إِيَّاكَ﴾ مرتين، وفي ﴿أَنْعَمْتَ﴾، ومن الأمر الدال على معنى الـدعاء في ﴿ٱهْدِنَا﴾ ومـن تـصوير الإسـلام والـسير عـلى منهاجه بالطريق الواضح في ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

١٠. إيجاز الحـذف في البـسملة وفي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: غـير صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين.

١١. اشتمال كلمات الـسورة وتراكيبهـا عـلى لطـائف وأسرار بلاغيـة جعلتهـا في قمـة البلاغة والإعجاز.

فالسورة من أولها إلى خاتمتها احتوت على البراعة في اختيار الكلمات، والروعة في التنقل من أسلوب إلى أسلوب معنى ومبنى، مما كان له الأثر الأكبر في إيقاظ النفوس، واستمالة القلوب.

وقد ذكرتُ هذه الأسرار في المبحث الثاني قَدْرَ استطاعتي، وحسبي أني كنت مجتهداً، فإن أصبت فذلك فضل من الله، وإن أخطأت أو قصَّرتُ فأرجو أن يرشدني القارئ إلى الصواب، داعياً ربي أن يتقبل مني هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ...﴾ [البقرة: ٢٨٦] والحمد لله رب العالمين.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

- أسلوب القصر: دراسة تحليلية، تأليف: د. بسيوني عرفة رضوان، ط ١٤٠٤هـ-١٩٨٩م.
- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤هـ.
- بدائع الفوائد لابن القيم، تحقيق: علي بن محمد العمران، نشر وتوزيع دار عالم الفوائد، ط ١٤٢٥هـ.
- بغية الإيضاح، تأليف: عبدالمتعال الصعيدي، نشر مكتبة الآداب، ط ١٤١٧هـ١٩٩٧م.
- البلاغة العربية: أسسها وعلومها، تأليف: عبد الرحمن الميداني، نشر دار القلم، دمشق، ط ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- البلاغة فنونها وأفنانها. (علم المعاني). تأليف د. فضل حسن عباس، نشر دار الفرقان، ط٢، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
- تفسير التحرير والتنوير، تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: العصر، والكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين. تأليف السيد محمد رشيد رضا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.
- تفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ط، ١٤٠٣هـ.
- تفسير أبي السعود، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ت: عبد القادر أحمد عطا.
- تفسير البيضاوي، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف ناصر الدين البيضاوي، نشر دار الفكر.
- تفسير الطبري، المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، نشر دار الفكر.
- تفسير القرطبي، تصحيح هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- التفسير القيم، للإمام ابن القيم (٦٩١-٧٥١هـ) جمعه محمد الندوي، وحققه محمد حامد الفقي، لجنة التراث العربي، بيروت.
- التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الجديدة الملونة.
- التفسير الكبير، نشر دار الكتب العلمية، ونشر دار إحياء التراث العربي.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي، المكتبة العلمية، بغداد، مطبعة المعارف ١٣٧٥هـ.

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: رسالة الرماني.
- جواهر البلاغة. تأليف أحمد الهاشمي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط، ١٤٢٤هـ.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تـ: د. محمد رضوان الداية، د. فايز الداية، نشر دار قتيبة، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
- روح المعاني، للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢ -٢٧٥هـ).
- سنن البيهقي الكبرى، وشعب الإيمان. تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ).
- سنن الترمذي: الجامع الصحيح. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (٢٠٩-٢٧٩هـ).
- صحيح البخاري: الجامع الصحيح المختصر، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ).
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ).
- صفوة التفاسير، تأليف: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط١، ١٤٠١هـ.
- الصورة البديعية بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، القسم الثاني، ط ١٣٨٥هـ مكتبة الشباب. مصر.
- علم البديع، تأليف: د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ط١.
- فتح القدير، تأليف محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ط، ١٤٠٣هـ.
- فقه السنة، تأليف السيد سابق.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، المنسوب إلى ابن قيم الجوزية، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١٠، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، نشر عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الكشاف. تأليف جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية. بيروت. ط١، ١٤١٥هـ.
- كشف المعاني في المتشابه المثاني، تأليف بدر الدين بن جماعة، ت: مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف للنشر.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، نشر دار الرفاعي.
- مجموع فتاوى أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، طبعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله، توزيع دار الإفتاء.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، نشر دار الكتب العلمية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ).
- مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦-٢١١هـ).
- معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، نشر دار العلوم. ط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- من بلاغة القرآن لأحمد بدوي. ط ٢، نشر مكتبة نهضة مصر.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ١١٧
مقدمة البحث ١١٨
مدخل
١- أسماؤها وصفاتها ١٢٠
٢- فضلها ١٢٢
٣- فضل البسملة ١٢٥
٤- سياق الآيات ومعناها العام ١٢٦
المبحث الأول: من الدلائل البلاغية العامة لإعجاز السورة ١٢٧
المبحث الثاني: من بلاغة الكلمات والتراكيب في السورة ١٤١
الخاتمة ١٧٥
ثبت المصادر والمراجع ١٧٨
فهرس الموضوعات ١٨١